آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
السنة الحادية والعشرون، العدد الأول، الربيع و الصيف ١٤٣٩ هـ .ق، ١-٢٢

التوازن جوهر العمارة الإسلامية

سمية أميدواري*

الملخص

تعتبر العمارة من إحدى مظاهر عالم التّشريع، ووعاءً لحياة الإنسان، فتلعب دوراً مهماً جدّاً في تنمية قدرات الإنسان وإيجاد الأرضيّة المناسبة له للوصول إلى التّوازن وبلوغ الكمال. والحقّ أنَّ العمارة الإسلاميّة ظاهرة صادرة من الرؤية الإسلاميّة تؤدّي دوراً هامّاً لخلق المجال المطلوب لإيجاد التّوازن في محيط الوجود، ومن هنا فإنَّ هذا البحث سيتناول هذا الموضوع بالدّراسة والتّحليل بهدف إثبات أنَّ التّوازن هو جوهرة العمارة الإسلاميّة. التّوازن في الوجود يغطّي جميع وجوه العالم الظّاهريّة منها والباطنيّة، وبسبب الرّوابط الوثيقة الموجودة بين جميع أنظمة العالم، فإنَّ النّتيجة التي يمكن التّوصل إليها، هو أنَّ التّوازن ليس جوهر تكامل النّفس والوجود فحسب، بل إنَّه جوهرة العمارة الإسلاميّة أيضاً. في البداية سيتمّ التقديم تعريفاً وتبييناً للعمارة الإسلاميّة والرّؤى المقدّمة حولها من قِبل المستشرقين والعلماء، ومن ثمَّ سيتمّ نقد كلّ الآراء المطروحة حول تعريف العمارة الإسلاميّة. ومن خلال التأمّل في عالم الوجود الذي يُعَدّ مظهراً لعالم التّكوين، وبالتّأمل في الإسلام يتبيّن أنَّ التّوازن هو مظهر لعالم التّشريع فهو قانون يسري في الوجود ويجري فيه، وهذا ما جعل التّوازن جوهر هذه العمارة.

الكلمات الرئيسة: العمارة الإسلاميّة، التّوازن، مراتب التّوازن.

* أستاذة مساعدة في قسم العمارة، كلية الهندسة المعمارية، جامعة العلم والفن، يزد، s.omidvari@sau.ac.ir
تاريخ الوصول: ١٣٩٧/٢/٧، تاريخ القبول: ١٣٩٧/٤/١٥

١. المقدمة

الإنسان المعاصر يعاني من مشاكل كثيرة، وعمارة اليوم عوضاً عن كونها ملاذاً مناسباً لتسكين الرّوح الإنسانية القلقة وهي تشكّل الفضاء المناسب لضرورات الرّوح، فهي نفسها أضحت عاملاً في خلق المزيد من الاضطراب، كما أنّها أضحت في أغلب حالتها عاملاً مخرّباً لروح الأفراد وخلق التّعب واليأس في نفوسهم فضلاً عن أن تكون بنّاءة للإنسان.

طرحت في المجال العمراني حلولاً كثيرة للتّغلّب على أزمة العمارة المعاصرة وما يبدو فيها من إشكالات، وفي كثير من البلدان الإسلاميّة أيضاً قدّمت حلولاً للتّجاوز عن هذه الأزمة ومنها العمارة الخضراء والعمارة المستدامة والعمارة الطّينية والعودة إلى العمارة التّقليديّة أو إلى لغة العمارة الإسلاميّة. إحدى المشكلات المعاصرة التي تواجهها العمارة الإسلاميّة هي ضياع حقيقتها أو جوهر هذه العمارة أو إغفالها. فأغلب المستشرقين الذين يقدّمون بحوثاً عن العمارة الإسلاميّة ينتمون إلى أرضيّة ثقافيّة وفضاء ذهنيّ مختلف، فهم في دراستهم للعمارة الإسلاميّة غالباً يكتفون بالمظهر الخارجيّ لها ويغفلون عن حقيقة أنّ التّزيينات والشّكل ما هي إلّا مظهر وصورة للحياة الإسلاميّة، قابلة للتّغير والتّحول عبر الزّمان والمكان.

وتحدّ دراسة العمارة الإسلاميّة غالباً في الأبحاث الأكاديميّة والجامعيّة، أمّا من ناحية العمل والتّخطيط فيتمّ إغفال العمارة الإسلاميّة بشكل كامل أو يكتفى بأشكالها الظّاهرية باعتبارها سمات مميّزة للعمارة الإسلاميّة ولا سيّما في الأبنية الدّينية. ولذا فمعماري و جيل الشّباب غير قادرين على تحقيق أدنى ارتباط مع هذه العمارة والاهتمام بها.

١.١ أهمية البحث

إنّ العمارة الإسلاميّة بصفتها تمثّل قسماً من عمارة البلدان الإسلاميّة، وذات تجارب وقدرات غنيّة من الثّقافات القومية والمحلّية لكلّ منطقة، وبسبب هيمنة الثّقافة الإسلاميّة على هذه البلاد، فإنّها تصبح حاملاً للفكر والعقليّة الإسلاميّة بصفتها آخر رسالة توحيديّة. من هنا تأتي أهميّة دراسة هذه العمارة والتّعمّق في مظهرها. ولعلّ عدم وجود المعرفة المناسبة بتلك العمارة يؤدّي إلى تضييع الحقيقة والبحث عنها في غير مكانها. كما أنّ التّراث المعماريّ

للبلدان الإسلاميّة تمّ نسيانه وهجره أو تعرّضَ للتّخريب بسبب تقادمه وعدم تناسبه مع مقتضيات الإنسان المعاصر، وباتت المباني الجديدة تغزو مكانه يوماً إثر آخر. إنَّ معرفة نماذج العمارة الإسلاميّة والتّدقيق في القيم الخالدة الموجودة فيها يقود إلى معرفة أساليب استخدام هذه الأصول والقيم الثّابتة والرّاسخة في هيكلها، ومن ثمَّ يساعد في التعرّف على الحلول المناسبة لعمارة اليوم.

٢.١ أهداف البحث

إنّ القوانين والنّظم الإسلاميّة تنطبق على الفطرة ولا تتأثّر بتبدّل الزّمان والمكان، ويمكن أنْ تكون بوّابة للإنسان في كلّ عصر، فهذا البحث محاولة للتّنبيه إلي حقيقة أنَّ التّعامل مع الصّور والمظاهر البصرية يجب ألّا تحول دون تناول حقيقة هذه العمارة؛ حقيقة العمارة الإسلاميّة هي تلك الحقيقة الكامنة في باطن وجودك بصفتك إنساناً وفي باطن وجود العالم بصفته مظهراً من الخلق.فيهدف البحث إلى:

– دراسة العمارة الإسلاميّة ومعرفة الآراء الواردة حولها، وبلوغ الجوهر الثّابت في هذه العمارة التي لا ينتابها أيّ تغيير أو تحوّل عبر الزّمان والمكان؛

–كشف حقيقة التّوازن بوصفه سرّ الحياة والقانون الجاري في كلّ نظم التّكوين والتّشريع، وإثبات التّوازن بصفته الجوهر الثّابت في العمارة الإسلاميّة؛

– تبيين كيفيّة تحقيق التّوازن في العمارة الإسلاميّة ومراتب هذا القانون ومظاهره وحدوده في مختلف تجليّات العمارة الإسلاميّة؛

– التوصّل إلى أصول التّوازن في العمارة الإسلاميّة وسبله وأنظمته، وذلك من أجل تسخيرها في عمارة اليوم في استجابتها لرغبات النّفس البشريّة.

فاختارت الباحثة دراسة التّوازن في العمارة الإسلاميّة عنده هادفةً الوصول إلى استقصاء العلاقة بين العمارة الإسلامية وموضوع التّوازن فيها، فتنطلق دراستها هذه من السّؤالين التّاليين:

– ما هي جوهرة العمارة الإسلامية؟

– كيف تظهر تجليّات المراتب المتفاوتة للتّوازن في العمارة الإسلاميّة؟

٣.١ منهجية البحث

لتحقيق أهداف البحث، سيتمّ اتباع المنهج التّحليليّ الإستقرائيّ للكتب والمراجع التي تناولت العمارة الإسلاميّة، فمن خلال التّأمل والتّدقيق في قوانين الطّبيعة ونظمها أو التّأمل في الإنسان ونفسه وأحياناً التّدقيق في الإسلام و*القرآن* وأحكامه، التّأمل في المجتمع التّقليديّ ودراسة منجزات هذا المجتمع والتّدقيق فيها بصفتها ثمرة لتيّار فكريّ.

وسوف يتمّ تناول المعني ومفاهيم تحقيق المعاني في الذّهن، أي التّأمل والبحث في مقولات العمارة الإسلاميّة وحقيقة الإسلام ومعرفة النّفس والسّير التّكاملي للنّفس والإحاطة برغباتها. وأمّا الحركة من الصّورة فتعني دراسة النّماذج والحضور فيها وتأمّلها وإدراك الفراغات بهدف الإجابة عن أسئلة البحث. لذا فإنَّ هذه الدّراسات ثنائية الجانب تيسّر إمكانية الوصول إلى الأبحاث النّظرية والعملية والرّبط بينهما.

٤.١ خلفية البحث

تكمن أهية البحث الموجود في جدته، وفيما نعلم لم يتطرّق أحد من الباحثين والكتّاب إلى دراسة الموضوع بنفسه وهو «التّوازن في العمارة الإسلامية»، ولكن هناك دراسات علمية كثيرة وبحوث أكادمية عديدة تطرّقت نحو دراسة العمارة الإسلامية ومن أهمّها:

بحث مقدّم إلى مجلة *آبادي* للباحثة نادية إيماني عنوانه: *العمارة الإسلامية في الرؤية المعاصرة*، وتدرس الباحثة في بحثها هذا العمارة الإسلامية باتّجاهيها الحكمي والتاريخي وتتصدّى لهما، فتعتقد أنّ العمارة الإسلامية مستوردةولكنّها تطوّرت في مسيرتها التّاريخية (إيماني، ٢٠٠٨: ٧٦)، وبحث آخر منشور في مجلّة الفنون الجميلة للكاتب محمد جواد مهدوي نجادعنوانه: *الفنّ الاسلاميّ في إشكالية المفاهيم المعاصرة والآفاق الجديدة*، والكاتب يتناول في بحثه الآراء المقدّمة حول العمارة الإسلامية، ثمّ يقدّم تحاليله حول الرؤية التاريخية والرّؤية الحكمية في العمارة الإسلامية، ويفضّل الرّؤية الحكمية في بناء هذه العمارة، ثمّ يصفها من وجهة نظره هذه (مهدوي نجاد، ٢٠٠٨)، ودراسة أخرى للباحث خالد عزام مقدّمة إلى

المؤتمر الدوليّ للفنّ الدّيني عنوانه: *المعنى الرّمزي للصّورة في العمارة الإسلاميّة*، ويقدّم الباحث تحاليل حول الفنّ الإسلامى وتجلّي هذا الفنّ في العمارة (عزام، ٢٠٠١: ٦٨ وما بعدها).

وبالنّسبة لدراسة موضوع التّوازن، فهناك عدد كثير من البحوث والدّراسات التي تناولت التّوازن كموضوع عامّ، منها: كتاب *التّوازن في الإسلام* للكاتب محمد علي التّسخيرى، والكاتب في بحثه عن التّوازن يكتفي بتقديم دراسة عامة حول التّوازن في رؤية الإسلام (التّسخيري، ١٩٨١) كتاب *التوازن معيار جمالي* للباحثة غادة محمد الحوطي، وهي تقدّم دراسات وتحاليل حول العلاقات القائمة بين التّوازن والجمال (الحوطي، ١٩٩٥: ٣٢ وما بعدها)، و*أبحاث في التّوازن والميزان* للكاتب نافذ عطار، وهو يقدم دراسة حول مفهوم التّوازن كموضوع عامّ، فيقدّم تحاليله حول الرّؤى المتنوّعة التي طرحت في مجال التّوازن (عطار، ٢٠٠٦: ١٤٦)، وهناك بحوث كثيرة أخرى لا يسعنا المجال للبحث عنها. فنرى جهود هؤلاء الكتّاب والباحثين تحدّ في تقديم دراسات حول التّوازن بصفته أساس الحياة والقانون الحاكم على الوجود والكون بعيداً عن الأنظمة الثّنائة، وكيفية تجلّي هذا النّظام والقانون في الوجود وفي الإنسان وفي بعض منتجاته.

٢. هيكلية البحث

١.٢ تعريف العمارة الإسلامية

ثمّة مجموعة كبيرة من الآثار الفنيّة المعاصرة تُعرف باسم الفنّ الإسلاميّ أو العمارة الإسلاميّة، والعمارة الإسلاميّة من المفردات الكثيرة الاستخدام في أوساط المعماريين، لذلك فإنَّ معرفة هذه الكلمة والتّعريف بها وتبيينها يحظى بأهميّة كبيرة لدى دائرة الفنانين ولا سيّما المعماريين. عنوان *العمارة الإسلامية* مصطلح جديد ظهر خلال العقد السّادس أو السّابع الميلاديّ من القرن العشرين على يد المستشرقين خلال سفرهم إلى البلدان الإسلاميّة للتّعرّف على العمارة والحضارة في تلك البلاد (ايماني، ٢٠٠٨: ٧٦)، فهذه التّسمية هي مصطلح غربيّ وليس شرقيّاً، لكن قبل ظهور هذه التّسمية لم تكن القواميس اللّغوية خاليةً منها، فقد كان هناك عدّة مصطلحات تطلق على العمارة في البلدان الإسلاميّة منها: العمارة المحمديّة، وعمارة

المسلمين، والعمارة المقدّسة، وعمارة العالم الإسلاميّ، والعمارة العربيّة، العمارة الهندسية وغيرها (مهدوي نجاد، ٢٠٠٨: ٢٥).

١.١.٢ اتّجاهات العمارة الإسلامية

بالعوده إلى المصادرة المكتوبة عن العمارة الإسلاميّة والتّأمل فيها يقودنا البحث نحو استنباط اتّجاهين معماريين مختلفين: الأول هو الاتّجاه التّأريخيّ والثاني هو الاتّجاه الحكميّ أو المعرفيّ (خالد، ٢٠٠١: ٦٨).

١.١.١.٢ الاتجاه التاريخي

في هذا التّعبير تبدو العمارة الإسلاميّة بمثابة الأصل والإسلام صفة لاحقة لها، إلى درجة أنَّ العمارة الإسلاميّة تقع في مقابل العمارة اليهوديّة أو المسيحيّة وغيرها. وهذا الإتّجاه تمّ تبنّيه من قِبَل المؤرّخين والمستشرقين، حيث اكتفوا بالتّعريف بعناصر العمارة في مختلف مراحل التّاريخ، وذلك من خلال مطالعة المسيرة التاريخيّة للحكومات الإسلاميّة وجغرافيتها. ولذا فهُم يرون أنَّ الإسلام يرتبط بمكان وزمان خاصّ. لكن هؤلاء الكتّاب والدّارس ونيفتقدون للمعرفة المتكاملة حول الإطار الفكريّ والثقافيّ والدينيّ لهذه الآثار، ولذا فَهُم يعتمدون الفكر البشريّ الذي بدأ بعد عصر النّهضة (مهدوي نجاد، ٢٠٠٨: ٢٦).

٢.١.١.٢ الاتّجاه المعرفيّ أو اتّجاه الحكمة (الإسلام أصل والعمارة جزء منه)

تبدو العلاقة بين الإسلام والعمارة طبقاً لهذا الاتّجاه، بأنَّ الإسلام يمتاز بالأصالة بينما العمارة جزء منه، في هذه الطّائفة من التّعاريف نجد المنظّرين التقليديين الذين تجاوزوا حدود الصّبورة في تعريف العمارة الإسلامية وبيانها، وغاصوا في المعني. فمن وجهة نظر هؤلاء ليس لزاماً على العمارة الإسلاميّة أن تتضمَّن خصائص هيكلية وشكلية محدّدة، فالمهمّ هو وجود المسلم المؤمن كي يكون شرطاً لإسلامية بناءٍ ما. يعتقد هؤلاء أنَّ العمارة الإسلاميّة يجب أن تخرج إلى الوجود من تحت أنامل فنّيان مسلم، وما دامت الأفكار الإسلامية تعبر عقل الإنسان، فإنَّ كلّ عمارة تتمّ على يديه هي عمارة إسلاميّة (بوركهارت، ١٩٧٦: ٥١).

٣.١.١.٢ مكانة العمارة الإسلامية في هذا البحث

فيما نعلم البحوث التي بين أيدينا تناولت تعاريف العمارة الإسلاميّة والدّلائل على نقض الرّؤية التّاريخيّة للعمارة الإسلاميّة، أمّا هذا البحث فيقوم في الواقع على تبيين اتّجاه الحكمة والمعرفة واستكماله، فيرى أنَّ العمارة الإسلاميّة هي استمرار لتيّار الحكمة الذي أقيم على يد الإنسان المسلم والمؤمن الذي بلغ جوهر المعرفة الدّينيّة في وجوده. اتّصال المسلم بذلك المنبع الأزليّ يشعر أنَّ كلّ ما يخلقه موجود في بيان تلك الحقيقة السّرمدية، والمسلمون الذين يبلغون هذا المقام يصبح كلّ ما يخلقونه ذات وحدة داخليّة بسبب الأفكار المشتركة، لذا فتأمّل أبنية البلدان الإسلاميّة يعكس لغةً مشتركةً.

٢.٢ مكانة الفنّان في مراحل خلق العمارة الإسلاميّة

من المقولات المهمة جداً من النّاحية الحكميّة والمعرفيّة أهميّة الفنّان ومكانته في مراحل خلق الأثر الفنّيّ، فالفنّان وأفكاره ورؤيته له تأثير كبير جدّاً في خلق الأثر الفنّيّ. من وجهة نظر المسلم أو الإنسان الذي تربّى في محيط تفكير تقليديّ تتلخّص قواه الإدراكية في الحسّ والعقل والكشف والشّهود، ونظرة هذا الإنسان تجاه الفنّ والعمارة لا تقتصر على كونه عملاً أو حرفة لكسب الدّخل وإنّما بمثابة رسالة يرى فيها أنَّ وظيفة الفنّان تتلخّص في فكّ رموز العالم.

حلّ الرمز يؤدّي إلى الكشف عن رموز عالم الوجود وإظهار هذه الرّموز في قالب الفنّ. لذا فهذا المعمار يستطيع الشّروع بمهمّة فكّ الرّموز حينما تكون قواه الإدراكيّة سليمة لأنَّ قوة الإدراك والشّهود هي أداته في هذا العمل. وعلى هذا الإنسان أن يطرد الغفلة عن نفسه أو قواه الإدراكية كي يحظى بإمكانيّة الكشف والشّهود في العالم، وبلوغ مرتبة الخلق المناسب في الفنّ، تماماً كما في المثل: «كلّ إناء بما فيه ينضح» فإذا كان داخل الإنسان غير سليم فإنّه لن يستطيع إبراز المظهر الصّحيح في فنّه، وهذا ما يوجب عليه تأديب نفسه وتزكيتها.

طبقاً للثّقافة والتّقاليد القديمة غالباً ما يتلقّى المعمار المسلم مهارته وخبرته لدى أستاذ

حرفة، لكن مع تلقينه هذه المهارة يخضع التّلميذ لتربية وتعاليم أخلاقيّة، فيعمل الأستاذ على تطهير نفسه وتزكيتها من الرّذائل الأخلاقيّة، وهكذا يتمّ هذا العمل تزامناً مع تدريبه المهني.

ولعلّ جولة سريعة في عوامل كتب الفتوّة تبرز بعض المسائل المتعلّقة بالصّناعة والفنّ يمكن إجمالها بالآتي:

أ) الصّناعة والفنّ لدى هؤلاء عبارة عن أمانة إلهيّة ويرجعونها إلى منشأ مقدّس؛

ب) شرط الدّخول إلى عالم الصّناعة والحرفة هو الأدب واللّياقة والأهليّة، والتّخلّق بقيم المروءة، والتّطهّر من كلّ أنواع الرّجس والخبث والغرور والتّكبر وحبّ الدّنيا، وبالتّالي الاستعداد لدرك الحقائق (نديمي، ١٣٨٥: ٥٣)؛

ج) قطع حجاب الذّات والنّفس وصهر الأنفس في نار لقاء الحقّ، والاستعداد للعطاء الرّباني والاتّصال بحقيقة «وما رميتَ إذ رميتَ» (انفال: ١٧)؛

د) اقتران البناء من أولّه حتى انتهائه بذكر الحقّ.

لكن يجب الإشارة إلى أنَّ تأديب نفس المعمار لا تقتصر على حدود ممارسته للعمل فحسب، فهذا الإنسان يحيا في أرجاء مجتمع متوازن وهذا الفكر يسري في كلّ جوانب مجتمعه وحياته. هذا المعمار يحيا بعقيدة مفادها أنَّ العمارة أو أيّ فنّ آخر هي عبارة عن ترشّحات وتجلّيات لنفسه وداخله، ولذا ينبغي عليه تربية نفسه وتزكية باطنه إلى جوار اكتسابه المهارة من أستاذ الحرفة.

مع أنَّ المعماريين يقعون في مراتب متفاوتة ودرجات مختلفة، لكن بعضهم ممن بذلوا جهوداً في تأديب النّفس وتزكيتها بلغوا مقاماً فتح الله لهم فيه باب الحكمة. علم الحكمة يعني قدرة الإنسان على إدراك قوانين العالم ونظمه، وتحديد مكانة الأشياء المختلفة في الوجود، لذا فالعمارة الإسلامية عبارة عن ترشّحات لنفوسهم المتوازنة.

يتبيّن مدى الارتباط الوثيق بين الفنّان والمعمار المسلم وبين مختلف مظاهر عالم التّكوين والمعاني الموجودة فيها، والعمارة ليست إلّا بيان مظهر عن هذه الحقيقة الدّاخلية التي بدت في هيكل البناء أو صورته. لذلك ففي مراحل خلق العمارة من المعنى إلى الصّورة يتبيّن مدى أهميّة دور الفنّان في كشف الحقائق ومعنى العالم وتجلّيه باللّغة العمرانية.

٣.٢ التّوازن والعمارة الإسلاميّة

تبعاً لهذه التّعاريف المختلفة عن التّوازن، فالتّوازن عبارة عن قانون كلّي يجري في جميع جوانب الوجود ويمتاز بمراتب مختلفة، هذا التّوازن يمتدّ من أسماء الله الحسنى ومرتبة المعاني والحقائق إلى مرتبة الصّور.

للأبحاث التي أنجزت حول نفس الفنّان والعمارة الإسلاميّة والتّوازن، ونتيجة الرّوابط الوثيقة بينها، يمكن القول أنَّ العمارة الإسلاميّة هي عمارة التّوازن، وذلك لأنّها نجمت عن فكر وأرضية متوازنة، لذا فاعتماداً على وجهات مختلفة يمكن الإثبات بأنّ التّوازن هو جوهرة العمارة الإسلاميّة، والفنّان والمعمار في المجتمع الإسلامي يخضع لتأثير قوانين عالم الوجود من ناحية ولتأثير قوانين الإسلام وأحكامه من ناحية أخرى، وهذا ما يجعلهما يتمتّعان بروح غنيّة من التّوازن، وكلّ ما يصنعه المعمار يتطابق ورغباته وميوله الفطرية، وبالتّالي فهو يقع في مدار التّوازن، وفي هذا المجتمع تكون العمارة في هذا المدار أيضاً. والإسلام بوصفه مجلى لآخر السّنن الإلهيّة يتمتّع بتلك الحقيقة الأزليّة، ولذا فالعمارة الإسلاميّة بصفتها فنّاً منبعثاً عن هذا التّفكير لابدّ أن تستقي من تلك الحقيقة، وكما أنَّ الإسلام يتضمّن قيماً غير مقيّدة بلون زمانيّ أو مكانيّ محدود، وهي مفيدة في كل زمان ومكان، فإن الفن المنبعث من تلك القيم يتعدّى الأطر الزمانية والمكانية ويمكن أن يكون دليلاً لعمارة اليوم.

– ثمّة آيات كثيرة في *القرآن الكريم* تشير أيضاً إلى وجود التّوازنفي الكون والوجود، منها: «والسّماءَ رَفَعَها ووَضَعَ الميزان» (الرحمن: ٧)، «والأرضَ مَدَدناها وألقَينا فيها رَواسيَ وأنبتنا فيها من كلِّ شَيءٍ موزون» (حجر: ١٩)، أمّا نظام التّشريع الكونيّ الذي وضعه الإنسان فيمكن أن يكون نظاماً ثابتاً وخالداً ومتوازناً إذا ما انسجم وتوافق مع نظام عالم التكوين، وتحقيق هذا الأمر يتعلّق بتحقّق أصل التّوازن في نظام التّشريع. طبقاً للدّراسات الموجودة فإنَّ التّوازن ونظم عالم التّكوين تمتلك ارتباطاً متقابلاً ومنسجماً مع التّوازن والنّظم الموجودة في عالم التّشريع، وكلّ شكل من الأزمات أو انعدام التّوازن في عالم التّشريع يؤدّي إلى تعريض توازن عالم التّكوين إلى تغييرات (بكار، ٢٠٠٦).

لذلك فتبعاً للمقولات المشار إليها يمكن التّوصّل إلى نتيجة مفادها أنَّ التّوازن أصل كلّيّ وهو عالم مشمول في عالم الوجود (العالم الأكبر مع العالم الأصغر) وجميع هذا، ينبغي أن

تتمتّع بحصّة من قوانين التّوازن ونظمها تلك كي تستطيع الاستمرار في حياتها على نحو منسجم وثابت وفي توازن صحيح في هذا النّظام. ولما كان الإنسان كجزء من نظام التّوازن التّكويني مَديناً لهذا التّوازن، لذا فإنَّ المعمار والفنّان في هذا النظام والذي تشبّعت أفكاره بالتّوازن، يخلق عمارة تعكس أفكاره الدّاخلية، لذا فالعمارة في هذا النّظام تقوم على أساس التّوازن، في تعبير العمارة الإسلاميّة تم الإشارة إلى أنَّ قوانين الإسلام متطابقة مع قوانين الفطرة والوجود، ومرجع هذه النتيجة يعود إلى أن العمارة الإسلامية عمارة تواكب قوانين ونظم عالم الوجود وعالم النّفس، لذا فالعمارة الإسلاميّة تقع في مدار التّوازن لأنَّ الوجود والنّفس في هذا المدار أيضاً (قاضي، ٢٠٠٧). «الفنّ الإسلاميّ يعني عناية خاصّة بحقيقة الشّمول والتّكامل في النّفس البشريّة، فلا يجب – مثلاً – أن يعرّض الجانب المادي من الإنسان وحده بمعزل عن الجانب الروحيّ. ولا يجب أن تعرض الصّراعات الاقتصاديّة و الطّبقية كأنّها الحقيقة الكاملة للحياة البشرية، و تغفل بجانبها القيم المعنوية والرّوحية والأشواق الإنسانية العليا؛ لأنَّ ذلک بتر للحقيقة البشريّة وتشويه لصورتها» (محمد الحوطي، ١٩٩٥: ٣٢).

أمّا العمارة الإسلاميّة فهي مِثل أي فنّ آخر تمتلك أيضاً وجهين هما الصّورة والمعنى أو الظّاهر والباطن. تتعرّض الصّورة أو الظّاهر التّغيير تبعاً لشروط المحيط وغيره، وكلّ زمان يتطلّب صورة خاصّة به تبعاً للشّروط القائمة، لكن لا شكّ في أنَّ المهمّ هو تلك الأفكار أو المعاني الحقيقيّة التي لا تتقادم وتبقى ثابتة مع مرور الزّمان، وذلك لأنَّ تلك المعاني ترتبط بعالم أعلى أو أوسع من عالم الصّورة. أما الصّورة فهي نفسها وسيلة لبلوغ المعاني، ويمكن أن تكون عامل كشف أو حلّاً للرّموز كي تزيح النّقاب عن المعاني المكتنزة فيها، لذا فهذه السّلسلة من انكشاف الطّبيعة والتّجلي في الصّورة يمكن أن تكون في صورة أخرى قابلة للتّوجيه، أي إنَّ الانكشاف يتمّ من خلال الصّورة المعماريّة والصّناعات الفنيّة، والتّدبّر فيها يؤدّي إلى إمكانية استخراج حقائقها ورموزها والاستفادة منها. لكن من بين الاختلافات الواضحة التي يمكن الإشارة إليها في بيان تفاوت الرّؤية التّاريخيّة عن الحكيمة والمعرفية تتجلّى في الواقع في سير حركة هؤلاء المفكّرين في طبقات بين الصّورة والمعنى. النّظرة التّاريخيّة غالباً ما اعتمدها الغربيون في نظرتهم تجاه العمارة الإسلاميّة وذلك تبعاً لتفكيرهم العلماني، وانسجاماً مع روح النّهضة والمعنى الجديد للإنسان الذي يقتصر على امتلاك القوّة الإدراكيّة أو العقل والإحساس.

الغربيون من خلال إلغائهم قوّةَ إدراك الإنسان وكشفه وشهوده، أبعدوا البعد الرمزي عن العالم، وأنكروا أيّ معنى أو تأويل لما وراء الصّورة، فالعمارة الإسلاميّة من وجهة نظرهم تتلخّص في الصّور الهيكلية فحسب، ولم يتناولوا في توصيفهم للعمارة الإسلاميّة إلا السّقف والقوس والزّخرفة والعناصر المكوّنة دون أيّة مراعاة لمعانيها. أما في النّظرة الحكمية أو المعرفية حيث يبدو الكشف والشّهود القوة الإدراكية المهمة فيها، فإنّ الصّورة تقتصر على كونها مظهراً وتجلّي لذلك المعنى، وهي تفقد أهمّيتها مع مرور الوقت، لذا فإنّهم من خلال التّأمل في هذه الصّور يعملون على حلّ الرّموز وكشف المعاني في هذه العمارة، وحينئذ ستتكشف مقولات كثيرة أمامهم أيضاً عبر هذا النّوع من الرّؤية، ومن أهمّ هذه المقولات الفنان ونوع الفكر والرؤية والنّظرة التي يحملها تجاه العالم.



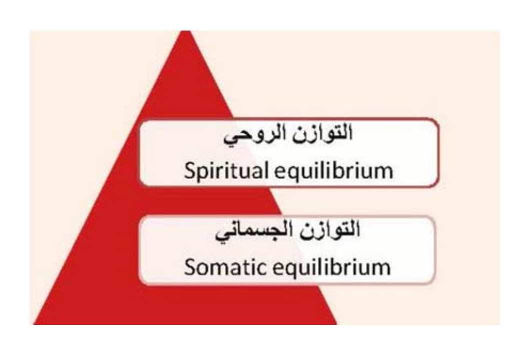
الشكل ١. وجوه مختلف توازن النفس؛ المصدر: الباحث.

٤.٢ المراتب المختلفة لتوازن النّفس والعمارة الإسلاميّة

١.٤.٢ المراتب المختلفة لتوازن النّفس

لأنّ الإنسان من حيث هو روح و جسد ونفس، هو الذي خلقه الله في أحسن تقويم، و أكمل هيئة و صورة، وفيه التّوازن كلّه، و يمثّل الميزان أعظم تمثيل، و ليس فيه من خليّة واحدة، غير متوازنة و زائدة (نافذ عطار، ٢٠٠٦: ١٤٦).

ولأنَّ الإنسان ذو مراتب، ويمتلك بُعدين من الوجود، الأوّل جسمانيّ والآخر روحانيّ، لذا فمن أجل أن يقطع مسار تكامله لا بدّ له من التّوازن في كافّة أبعاد وجوده ومظاهره، ولذلك فإنَّ البحث في توازن الإنسان يحتاج إلى مراعاة حالة التّوازن في جانبيه الجسمانيّ والروحانيّ.



الشكل ۲. مراتب توازن النفس؛ المصدر: الباحث.

و يقول: «إنّ الإنسان في نظير الإسلام ليس شقين منفصلين: شقاً أرضياً يعمل وشقاً سماوياً يتعبّد. إنّما العبادة عمل والعمل عبادة. والإنسان بشقّيه شيء واحد، وملاک الأمر في هذه الشّؤون كلّها هو «التّوازن». وهو صفة تكتسبها النّفس من السّير علي منهج الله» (التسخيري، ۱۹۸۱). أمّا التّوازن في الإنسان فيتجلّى في المراتب الظّاهرة والباطنة، وثمّة أحكام كثيرة أيضاً حول إيصال النّفس إلى حالة التّوازن التي تمّ الإشارة إليها تزامناً مع هذين الوجهين للنفس.

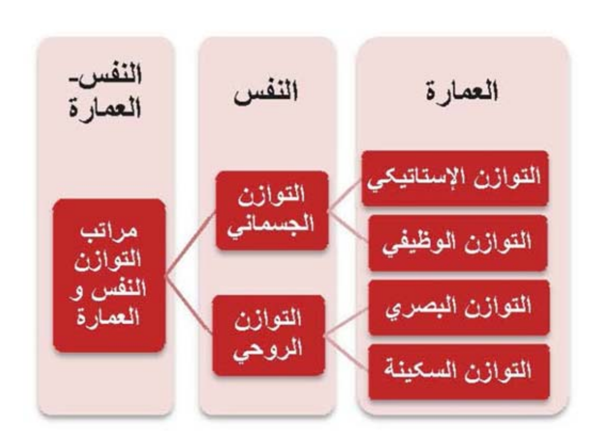


الشكل ۳. مراتب توازن النفس و توازن العمارة؛ المصدر: الباحث.

۲.٤.۲ المراتب المختلفة لتوازن العمارة الإسلاميّة

أشار الله سبحانه وتعالى في آيات متعددة من *القرآن الكريم* إلى وجود مراتب من الصورة إلى المعنى، من ذلك قوله سبحانه «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» (حديد: ۳).كما نجد وصفاً لذلك في حِكَم الإمام علي (ع): «إن أولياء الله هم الذين

نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر النّاس إلى ظاهرها» (*نهج البلاغه*: ٤٣٢). والأفراد بحسب موقعهم من فهم الحقيقة والدّرجة التي يبلغونها فيها، غالباً ما يستطيعون إدراك مستويات متفاوتة من الحقائق والمعاني وإبرازها مجدّداً في مظاهر عالم التشريع.



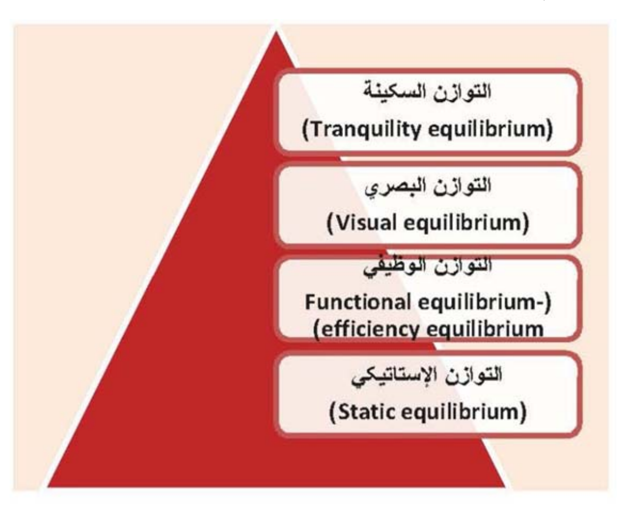
الشكل ٤. التناظر بين توازن العمارة وتوازن النفس؛ المصدر: الباحث.

قال تعالى: «انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا» (إسراء: ٢١).

إنّ العمارة هي بمثابة وعاء حياة الإنسان، لذا فالوصول إلى «مراتب التّوازن المعمارية»، يمكن أن يتمّ من خلال التّأمل في «مراتب توازن النّفس» وقد تمّ الإشارة في بيان توازن النّفس إلى مرتبتين هما: «التّوازن الجسمانيّ»، و«التوازن الروحانيّ» في التّناظر بين توازن العمارة وتوازن النّفس يمكن وضع «التّوازن الجسمانيّ للنّفس» في التّناظر مع «التّوازن الإستاتيكي والوظيفيّ» و«التّوازن الروحانيّ للنّفس» في التّناظر مع «توازن البصريّ والسّكينة» للعمارة.

وكذلك وضع «التّوازن الروحانيّ للنّفس»، وفي الواقع تلك الوجوه من التّوازن التي تعدّ استجابة للحاجات الجمالية للنّفس ووجوه سكينتها، في تناظر مع «التّوازن البصري» و«توازن السّكينة» وكما أنّ «التّوازن الجسمانيّ» و«التّوازن الروحيّ» للنّفس يرتبطان معاً على نحو وثيق، فإنّ «التّوازن الثّابت» للعمارة ذو ارتباط وثيق أيضاً مع «توازن السّكينة» و«توازن الطمأنينة» لديها. لذا فالكمال المعماري ككمال النّفس والإنسان حيث يحصل حينما يكون

هـذان الوجهـان متنـاظرين معاً على نحـو مناسـب. جـدير بالـذّكر أنّ جهـود المعمـار في هـذه المراتب الأربع تنصب في إيجاد الأرضيّة المناسبة لتحقيق توازن النّفس.



الشكل ٥. مراتب توازن العمارة؛ المصدر: الباحث.

١.٢.٤.٢ التّوازن في مرتبة «الإدراك» أو «توازن السّكينة»

هناك ثلاث مراتب من التّوازن المعماريّ؛ الإستاتيكي والوظيفيّ والبصريّ، كلّ واحدة منها قابلة للقياس والوزن من خلال الرّمز أو التّجلّيات الخارجيّة، أمّا التّوازن في مرتبة السّكينة أو في أثناء الاستجابة لحاجة التّوازن الرّوحانيّ للنّفس فهي غير قابلة للقياس في العمارة كلياً وفق صورة ملموسة وعينية، وقياس ميزان توازنها أو عدم توازنها يتمّ فقط عن طريق إدراك المخاطب القابل للفهم والقياس، وميزان حصول الإنسان على مرتبة الطّمأنينة التي تستطيع إظهار ميزان وصولها إلى مرتبة التّوازن.

التّوازن في مرتبة السّكينة تؤدّي إلى بلوغ الطمأنينة. بناءً على ذلك فلا يوجد أيّ مرتبة من مراتب العالم سوى مرتبة عالم النّفوس تستطيع أن تكون مظهراً لهذه المرتبة من التّوازن. وقد أُختير الإنسان ليكون أشرف مخلوقات العالم بسبب القوّة العاقلة والرّوح الإلهيّة التي نفخت فيه. وهذا الإنسان الذي هبط من العالم الأعلى يستطيع الوصول إلى السّكينة حينما يطوي مراتب الكمال ثانية ويقترب من مقام القرب الإلهيّ. وقد أشار الله سبحانه في آيات كثيرة

من *القرآن* إلى أهميّة هذه المرتبة من توازن النّفس وكيف تنزل السّكينة والطمأنينة على قلوب المؤمنين. «هو الذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا» (فتح: ٤).

مع ملاحظة أنّ الهدوء الحقيقيّ يكون بالتّقرب من الله سبحانه وتعالى، والكثير من آيات *القرآن الكريم* تشير إلى هذا المعنى «ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب» (الرعد: ٢٨)، وبالتّالي فإنّ المحيط المعماري يمكن أن يكون مؤثّراً في إيجاد هذه السّكينة و هذه المرتبة من تعادل النّفس الإنسانيّة والتّعادل في مرتبة السّكينة يحتوي على مقامات مختلفة ويجوز القول إنَّ أحد مميّزات العمارة الإسلاميّة عن غيرها من طرز العمارة هي الوصول إلى هذا الهدف وإلى هذه المرتبة من التّعادل والتّوازن ولأنَّ العمارة مع إختلاف طرزها وأنواعها تهدف للوصول إلى التّوازن من النّاحية الستاتيكية والوظيفية وفي كثير من الأحيان في النّاحية البصريّة، أمّا تلك المرتبة في العمارة والتي تركّز بشكل أقلّ على الشّكل الخارجي وهي قابلة للفهم من قبل عدد أقلّ من الأشخاص وتلك هي مرتبة السّكينة. ولذلك فإنّ المعمار المسلم يسعى لأن يكون التّعادل الوظيفيّ محملاً للتّعادل النّفسيّ والجواب للمتطلّبات الوظيفية يجب أن يحمل شيء من المعنوية وفي حال الإجابة الصّحيحة إزاء المتطلّبات الوظيفيّة يحمل رسالة الإسلام بين طيّاته.

للوصول إلى مقام تعادل السّكينة فإنَّ الثّنائيات النّفسانية تلعب دوراً مهماً في ذلك، هذه الثّنائيات تكون في مقام المؤثر وخالق الأثر المعماري ذي السّكينة من جهة ومن جهة أخرى تكون في مقام المتلّقي والمخاطب وهي ذات أهمية في كلتا الحالتين، و من ناحية المزاوجة بين تلك الثّنائيات فإنَّ الصّورة والمعنى من أهمّ الثّنائيات التي تساعد على الوصول إلى السّكينة و لأنَّ السّكينة كانت الجواب لرغبات الإنسان المعنوية. نوع آخر من تلك الأزواج هو الإنسان و محيطه الطبيعيّ والعلاقة في هذه الحالة يتمّ الحفاظ على الحدود لتستمرّ العلاقة بين تلك الثّنائيات وبالتّالي فإنَّ عمليّة التّكامل والإستكمال في العمارة ستستمرّ مع المخاطب وبشكل متناظر.

أهمّ المقولات في توازن السّكينة

- إيجاد المحيط المناسب لتأمين الخلوة؛
- إيجاد المحيط المناسب لتأمين المزاوجة بين المعاني والصور؛

– إيجاد المحيط المناسب لاستئناس المخاطب بمظاهر عالم المادة والتكوين (العلاقة مع الطبيعة)؛

– إيجاد الإماكنية لإقامة الحوار بين المخاطب والمحيط وإمكان التّأمل والتّعمق في الفضاء.

أصول وسبل الوصول إلى توازن السّكينة

– تمّ تشييد العمارة على أساس معرفة قدر النّفس الإنسانية وتقديرها؛

– تقود العمارة ذهن الإنسان نحو الوحدة بدل حركته في الكثرة؛

– استخدام الهندسة في المظاهر المعمارية المختلفة تشمل الزّخارف والنّظم الكلي للفضاءات؛

– الاستفادة من اللّغة الرّمزية في العمارة من أجل بيان الحقيقة؛

– الاستفادة من التّزيينات؛

– الاستفادة من الأشكال المقدسة والنِسَب الذّهبية في التّناسبات الفضائية.

٢.٢.٤.٢ التّوازن في المرتبة «البصرية» أو «الجمالية» أو «التوازن البصري»

يُعتبر التّوازن البصريّ أحد الوجوه المهمّة في توازن البناء حيث يعمل على الاستجابة للميول الجماليّة للإنسان. ويبدو أنَّ السّعي لتحقيق التّوازن البصريّ هو في الواقع سعي لتلبية حاجات الإنسان ورغباته بهدف الوصول إلى مرتبة «العمارة» بين المراتب الثّلاث المذكورة؛ الملجأ والبناء والعمارة. غالباً ما يكون أبرز وجه للتّوازن وفق الرّؤية المعمارية هو المظهر الخارجيّ وتجليات التّوازن في شكل البناء، وذلك لأنَّ أيّاً من مظاهر البناء لا يمكن أن يكون الواجهة حيث يخلق إدراكاً سريعاً لمخاطبه ويشكل ارتباطاً سريعاً معه.

إنَّ الإنسان في فطرته يمتلك توازناً داخلياً، ولذا فهو غالباً ما يشعر بتناغم مع مصاديق العمارة التي تتسم بهذا الّتوازن. أمّا التّوازن البصريّ فتختلف لغته بحسب نوع العمارة. والتّوازن في عمارة المدن يمتلك مظهراً واحداً، أمّا العمارة الرّيفيّة فيختلف شكل مظاهرها. إنّ ما يثير الاهتمام في مبحث التّوازن البصريّ هو النّسبة والعلاقة بين مقولتي التّناظر والتّوازن. والحقّ أنّنا نحسّ توازناً في بناء حينما نجد فيه علامات من التّناظر، أمّا السّؤال الأساسيّ هنا هو: ما الشّروط اللازمة لإيجاد توازن بصري؟ إذا كان التّوازن البصريّ أحد الملامح المهمّة لتوازن

العمارة فهل يلزم وجود خطّ تناظر في واجهات واستقرار الفضاءات على نحو متوازن في طرفي التّوازن من أجل إيجاد توازن؟ لعلّ السّمة الغالبة على العمارة الرّيفيّة هو افتقادها لخط التناظر في أبنيتها، لكن ملامحها ومظاهرها غالباً ما تحمل توازناً بصرياً.

أهمّ المقولات في التّوازن البصريّ

في بيان المقولات ذات الأهميّة للوصول للتّوازن البصريّ يمكن الحديث كما يلي:

– وجود علاقات منطقية بين أجزاء الواجهة من الكلّ إلى الجزء (التّحرر من الكثرة والوصول إلى الوحدة في الواجهات)؛

– الانتباه إلى المتضادّات في الواجهات بهدف إيجاد الجاذبية. مثل الكتلة والفراغ الظّل والنور و ... (عند استخدام هذه الأزواج من المتضادّات وفي حال تمّ رعاية مقاديرها فإنَّ تقابل الأزواج المتضادّة يكون بشكل مستمرّ إلى أن يتحقق التّوازن في الواجهات)؛

– استمرار العلاقات بين الأجزاء إلى حد الوصول إلى الوحدة في الواجهة؛

– الإنتباه إلى مقولة التّناسبات وأعضاء الواجهة هي في علاقة مع المخاطبين؛

– وجود العلاقة المستمرّة بين المخاطب والواجهة (تحت عنوان الزّوج في العمارة)؛

أصول وسبل الوصول إلى التّوازن البصري

وفي بيان الأصول الحاكمة على العمارة لأجل الوصول إلى التّوازن البصريّ يمكن القول كما يلي:

– حفظ الثّوابت والمتغيرات في التّوازن البصريّ؛

– وجود محور التّوازن في البناء بدلاً من محور التّناظر؛

– مراعاة الخطوط النّاظمة في تصميم الشّكل المعماري؛

– الإنتباه إلى أصل الكثرة في الوحدة في انتظام الواجهات.

٣.٢.٤.٢ التّوازن في مرتبة «العمل» أو «الفعل» أو «توازن» الوظيفيّة

التّوازن يعني رعاية القدر والقياس، أي استقرار كلّ شيء في مكانه، لذا تبعاً لهذا التّعريف فالتّوازن المعماري لا يستلزم مراعاة المظاهر والمعالم البصريّة أو المرئيّة للبناء، وإنّما يعني استقرار

الفضاءات بمقدارها وقياسها المناسب في مكانها، والاستجابة المناسبة للحاجات الأوليّة والفعليّة للإنسان.

في هذا النّوع من التّوازن تمّ مراعاة المقدار والنسب وكمية الفضاءات، لذا فالفضاءات المعمارية تمّ التّخطيط لها على أساس المقدار والمقاييس الخارجية للإنسان كالطّول والحجم وبقية مظاهر سلوكه. في تبيين مراتب العمارة تتمّ الإشارة إلى ثلاث مراتب وهي: «الملجأ»، و«البناء» و«العمارة» والواقع أنَّ التّوازن من وجهة النّظر الفعلية يسعى للاقتراب من مرتبة «البناء» في العمارة. يتلخّص هدف الإنسان المسلم وغايته في الوصول إلى مقام القرب الإلهي، لذا فالاستجابة إلى ضرورات السّكينة هي وجه واحد فقط من رغبات هذا الإنسان، والتّوازن الفعليّ أو السّكينة المعمارية تستطيع أن تلبّي رغبةً واحدة من رغباته فحسب. أمّا التّأمل في مصاديق العمارة فيشير إلى أنّ الاستجابة إلى هذا القسم هو ضرورة من ضرورات الإنسان في كلّ مكان وزمان، والعمارة المتوازنة هي العمارة التي تستطيع الاستجابة إلى أدقّ الحاجات الفعلية للإنسان على نحو مناسب.

أهمّ المقولات في موضوع التّعادل الوظيفيّ

مع الأخذ بعين الإعتبار ما ذكر لأجل الوصول إلى التّعادل الوظيفيّ في العمارة يجب الانتباه إلى ما يلي:

– الاهتمام بالتّكيف الحراريّ (التّدفئة) والتّكيف البارد (التبريد) في العمارة؛

– تأمين احتياجات الفرد والمجتمع (احتياجات الإنسان للخلوة والجلوة في العمارة)؛

– الانتباه لرعاية الحريم الخصوصيّ والعموميّ في البيت؛

– مداومة الإجابة على الاحتياجات الوظيفيّة (العمارة يجب أن تجيب على الاحتياجات الوظيفيّة وأن توجد التّعادل المستدام ولذلك يجب انشاء العلاقة بين الثّنائيات – الإنسان والوظيفة المعمارية –).

أصول وسبل الوصول إلى توازن الوظيفي

في هذا النّوع من التّوازن يلعب المقدار الكميّ للفضاءات أهميّة كبيرة، لكن مراعاة المقادير

الكمية يؤدّي إلى إيجاد المقادير الكيفيّة للفضاء. والحقّ أنّ هذه المقادير الكميّة والكيفيّة التي تناسب حاجات النّفس في الحالة الفرديّة والإجتماعية تمتاز باختلافات قليلة. لذا فمن أجل الوصول إلى التّوازن الفعليّ يمكن مراعاة المقولات الآتية:

– مجاراة المحيط والطّبيعة أثناء الظّروف الإقليميّة العصيبة؛

– مراعاة المرونة بهدف خلق الإمكانات الفعليّة؛

– إيجاد التّنوع في الأبعاد والمقادير وتناسب الفضاءات بهدف الاستجابة إلى الحاجات الفرديّة والإجتماعيّة؛

– الإلتفات إلى أهميّة موضوع الجزء والكل في العمارة ... من مقياس الجزء في الزّخارف إلى مقياس الانتظام في الفضاءات الكليّة مع بعضها (الكثرة والوحدة) لتأمين الخلوة؛

– رعاية الحدود في مجاورة الفضاءات مع بعضها وبشكل مناسب ورعاية المقادير والمقاييس للإجابة على الاحتياجات الوظيفية المعمارية المختلفة.

٤.٢.٤.٢ التّوازن في مرتبة «الإستاتيكى» أو «التّوازن الثّابت»

في أثناء تبيين مراتب العمارة أوردنا لها ثلاثة مراتب وهي: «الملجأ» و«البناء» و«العمارة»، وهذه المراتب الثّلاث تتموضع إلى جوار بعضها على نحو طوليّ وليس عرضياً. والحقّ أنّ إيجاد ملجأ للإنسان يهدف إلى إيجاد التّوازن في البناء في مرتبة الاستحكام والثبات، وغالباً ما يتمّ إطلاق اسم المتوازن أو غير المتوازن على الكثير من مصاديق ذلك.

أما أبسط سؤال يمكن طرحه هو أنّه كيف يمكن بلوغ هذا الوجه من التّوازن في العمارة؟ أو ما هي القوانين والنُّظُم التي تمكّن من بلوغ التّوازن الثّابت في العمارة؟

لعلّ التّأمل في نظم عالم التّكوين يعدّ أحد المصادر المهمّة من أجل الوصول إلى قوانين ونظم التّوازن في المظهر الثّابت للعمارة. مظاهر عالم التّكوين كثيرة في الوجود، منها عالم الجماد وعالم النّبات وعالم الحيوان، والأبرز هو عالم العقول أو عالم النّفوس. إحدى وجوه التّوازن في هذه العوالم هو التّوازن في الوجه الثّابت أو الهيكلي لها جميعاً. وقد أشار الله سبحانه في آيات قرآنيّة إلى ثبات العالم واستحكامه، من ذلك في حديثه عن الجبال بوصفها أوتاداً «والجبال أوتادا» (النّبأ: ٧) يشير إلى تثبيت العالم وتحقيق استحكامه.

ومن بين العلوم والدّراسات المعاصرة في العمارة هناك «علم البيونيك» وهو يقوم على أساس الارتباط بين العمارة والطبيعة ومن أهداف هذا العلم دراسة الطّبيعة وتأمّلها من وجهة نظر الهيكل، كي يتمكّن من استخراج الأصول الثّابتة والهيكلية منها، وتسخيرها في العمارة. ومن بين المعماريين المعاصرين الذين اهتمّوا بإيجاد العلاقة بين العمارة والطّبيعة يمكن الإشارة إلى الأستر الي «سانتياغو كالاتراوا»، ولعلّ التأمّل في مصاديق عمارته يدلّ على مدى استفادته من الطّبيعة واعتماده على نماذج هياكل الحيوانات في التّخطيط العمراني ونصب الأبنية الضّخمة ولا سيّما الجسور.

أهمّ المقولات حول التّوازن الإنشائيّ للبناء

و في بيان ذلك يمكن الإشارة إلى ما يلي:

- الحفاظ على النّظام الإنشائيّ للبناء؛
- مقاومة النّظام الإنشائيّ في مقابل القوّى المختلفة كالرّياح والزلازل؛

سبل الوصول إلى التّوازن الإستاتيكي

- رعاية الوزن والمقادير في أثناء الاستفادة من المواد (معرفة مقتضيات المحيط والانسجام معها)؛
- مرونة الهيكل؛
- القدرة على النّمو والتّطوّر؛

٣. النّتائج

في الإطار العمرانيّ يمكن مشاهدة المظاهر المختلفة للتّوازن موضوع البحث، ففي أغلب المدارس العمرانيّة يتجلّى الهدف في الوصول إلى التّوازن، لكن نتيجة الرؤى الجزئية التي ظهرت نتيجة النّظرة العلمانية وتجزئة الإنسان إلى مختلف أبعاد وجوده، ودراسته على نحو متفرّق، أدّى ذلك إلى تجزئة العمارة إلى أبعاد مختلفة، وبات كلّ شخص ينظر إلى الإنسان

من وجهة خاصة، ويسعى لحلّ مشكلاته، فانعدام النّظرة الشّمولية الجامعة للإنسان في العمارة أدّى الى انعدام هذه الشّموليه في الوجود، ولم يعد المعمار قادراً على الاستجابة إلا لجزء من وجوه التّوازن.

في مرحلة الحداثة اتبعت العمارة الأشكال ذات التّبعية للفراغ الدّاخلي والاهتمام بالعلاقات الوظيفيّة للعمارة، ولذلك ففي هذه العمارة بات الجهد كلّه منصباً على الاستجابة لحاجات الإنسان وعمله بسبب تغيير نظرة العمارة تجاه الإنسان ومكانته في العالم فإنّ الاستجابة لحاجاته العملية كان يشكّل هدفاً وغاية، و يمكن اعتبار هذه العمارة مظهراً للتّوازن النّاجم عن العمل أو الوظيفة. في عمارة ما بعد الحداثة هناك عودات لنماذج العمارة الكلاسيكية لذلك يمكن مشاهدة مظهر التّوازن البصريّ الذي يبرز بجلاء في الوجه الظّاهري للعمارة. التي يمكن أن تخلق مظاهر من التّوازن الإستاتيكي في قلب العمارة اعتماداً على التّكنولوجيا ومهارات البناء. أما العمارة الإسلاميّة فهي تعني عمارة الفطرة، أي العمارة التي تستجيب لحاجات النّفس البشريّة الفطريّة، لأنّ أحكام الأديان كلّها ولا سيما الإسلام تتطابق مع الرّغبات الفطريّة للإنسان، ورسالة الدّين تقتصر على بيان طريق الحياة وأسلوبها الموافق لطبيعة وجود الإنسان.

والمعنى العام لجميع الأديان التّوحيديّة هو الإسلام، وذلك لأنّ قوانينها وتعاليمها جميعاً تهدف إلى الخضوع والاستسلام أمام قوانين الحقّ ونظم الوجود، رغم أنّ خاتم الأديان، الدّين الأتمّ والأكمل، اختصّ نفسه باسم الإسلام. فالفكر الإسلاميّ يسير في طريق بين الكمال والتّوازن، ولذا فكلّ ما ينتجعن هذا الفكر ينبغي أن يظهر هذا النّوع الفكري، بحيث يمكن القول إنّ العمارة الإسلاميّة أو أيّ فنّ فطريّ، دينيّ أو إسلاميّ، يتحرّك في مسار التّوازن. إذن يمكن العودة ثانية إلى تعريف العمارة الإسلاميّة، والإشارة من خلال الصّور المختلفة التي تبرزها هذه العمارة عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة إلى أنّ هذه الصّور المعمارية مناسبة لزمانها تبعاً للقدرات التّكنولوجية والموادّ التي تمتلكها، ولا شكّ في أنّ زماننا يتمتّع بحالات متفاوتة من النّاحية التّكنولوجية، لذا فالمهمّ هو استخراج المعاني التي استطاعت في نواحٍ مختلفة أن تحمل أفضل تجلّيات عمارتها.

المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

ايماني، ناديه (٢٠٠٨م). «معماری اسلامی در نگاه معاصر»، *آبادي*، العدد ٤٨.

بكار، عبدالكريم (٢٠٠٦م). *التوازن في حياة المسلم*، حمص: د.ن.

بوركهارت، إبراهيم (تيتوس) (١٩٧٦م). *هنر اسلامی، زبان وبيان (الفن الإسلامي، اللغة والبيان)*، ترجمة مسعود رجب‌نيا، طهران: سروش.

التسخيري، محمد علي (١٩٨١م). *التّوازن في الإسلام*، د.ب: الدّار الإسلامية.

فيروزان، مهدي (٢٠٠١م). «معنى رمزي صورت در معماری اسلامی (المعنى الرمزي للصورة في العمارة الإسلامية)»، خالد عزام، راز و رمز هنر ديني (سرورمز الفن الديني)، كنفرانس بين‌المللي هنر ديني، طهران: سروش.

قاضي، عبدالرشيد (٢٠٠٧م). *المنهج الاسلامي للوسطية و الاعتدال*، القاهرة: دارالسلام.

محمد الحوطي، غادة بنت عبدالعزيز (١٩٩٥م). *التوازن معيار جمالي (تنظير و تطبيق على الآداب الإجتماعية في البيان النبوي)*، جدة: عبدالمقصود محمد سعيد خوجه.

مهدوي نجاد، محمدجواد (٢٠٠٨م). «هنر اسلامي؛ در چالش مفاهيم معاصر و افق‌هاي جديد»، *الفنون الجميلة*، العدد ١٢.

نافذ عطّار، بشار (٢٠٠٦م). *أبحاث في التّوازن والميزان*، دمشق: د.ن.

نديمي، هادي (١٣٨٥ش). *كلك دوست (غدر الحبيب)*، إصفهان: مؤسسة الترفيه الثقافي في بلدية أصفهان.